

أسطورة "قابيل" في الشعر العربي المعاصر
-قراءة جمالية في نماذج شعرية مختارة-

The myth of Cain in contemporary Arabic poetry -aesthetic reading in selected poetic-

مريم زياتي¹

¹ جامعة عنابة، (الجزائر)، zianimeriem717@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/06/15

تاريخ المراجعة: 2022/03/08

تاريخ الإيداع: 2022/09/01

ملخص:

"قابيل" اسم يُسافر بنا عبر بوابة التاريخ، وينقلنا على بساط الريح نحو الماضي التليد، عنوان الجريمة الشنعاء، وأول من يسفك الدماء، حين قتل "هابيل" أخاه، وبيديه واراها التراب، ليصبح رمزا للغدر والتّمرّد وعصيان الإله. عرفت البشريّة أساطير حول صراع الإخوة الأعداء، وحوّت النصوص الدينيّة قصّة الأخوين "قابيل" و"هابيل"، وفرضت نفسها ليس في ساحة الأدب الغربي فحسب بل حتى في ساحة الأدب العربي شعراً ونثراً، كما أغوت أسطورة "قابيل" شعراءنا المعاصرين، ودعتهم إلى استلهاها، بسبب ما تحمله من دلالات يمكن إسقاطها على الواقع العربي المتشظي.

سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نزيح الستار عن الجماليات التي حققتها أسطورة "قابيل" في الشعر العربي المعاصر. منطلقين من الاشكالية التالية:

- ماهي الدلالات والمضامين التي عبّرت عنها أسطورة "قابيل" في الشعر العربي المعاصر؟ وماهي الجماليات التي حققتها؟

متتبعين الخطوات الإجرائية لمنهج النّقد الأسطوري (التّجلي - المطاوعة - الاشعاع).

الكلمات المفتاحية: قابيل - هابيل - الجماليات - الأسطورة - الصراع - الأعداء .

Abstract:

Cain is a name that travels us through the gate of history and takes us on the carpet of the wind towards the ancient past the title of the heinous crime and the first to shed blood when he killed his hands to become a symbol of treachery rebellion and disobedience to god. the religious texts contained the story of the brothers cain and abel and imposed themselves not the filed of arabic literature poetry and prose the legend of cain also seduced our contemporary poets and invited them to be inspired by it because of its connotation that can be dropped on the arab dystopian reality in this research paper we will try to unravel the aesthetics acgived by the power of cain

*المؤلف المراسل

in contemporary Arabic poetry. Starting from the following problem what are the connotations and contemporary Arabic poetry and what the aesthetics are they following the procedural steps of the legendary criticism approach (radiation – wrought- manifestation)

Key words : Cain - Abel - Aesthetics – Myth – Conflict – Enemies-

كانت الأسطورة مادة دسمة فتحت شهية الشعراء المعاصرين، وحين تواشجت مع الشعر، شكّلت كيانا واحدا، ونظاما عصيًا عن التفكيك.

وللأسطورة والشعر علاقة قديمة حديثة، فكما كانت ملاذ الإنسان البدائي، وكانت له الحلم والخيال والذاكرة... كانت للشعراء المعاصرين الحزن الذي يمدّهم بالطاقات والإحياءات، ويزوّدهم بالمعاني الخالدة في تناسق وتناغم، فيخلق عالم جديد تتدفق منه سيول من الدلالات.

تسري الأسطورة في الشعر سريان الدّم في الجسد، فتمدّه بالديناميّة، والأبعاد، يبعثرها الشاعر ويلملمها ويعيد تركيبها من جديد، لذا فالأسطورة تضيئ لمستها الجمالية على النصوص الشعرية، وتخلق لحظة من اللذة والانتشاء والعذوبة.

وفيما يلي محاولة لتتبّع العناصر الأسطورية ولمستها الجماليّة التي أضفتها على في نماذج من النصوص الشعرية المعاصرة التي وظّفت أسطورة "قابيل". وأوّل هذه الجماليات :

1- التّداعي:

يعدّ التّداعي من أهمّ التقنيّات الجماليّة في القصيدة، ويستند على خلفيّة ثقافية ثريّة، وخيالٍ لا ينضب «هو عمليّة التّوليد الفنّي الذي يتشكّل تباعا من خلال ما يشبه التّداعي المعنوي اللفظي للكلمة المفردة. غير أنّنا لا نقصد به تداعي الكلمات، بقدر ما نقصد تداعيات الإحياء في الصّور الشعرية المتواليّة»¹

التّداعي فيض جارف من الإحياءات، هو عمليّة خلقٍ للدّلالات، من خلال كسر نظام اللّغة والسّفر بها إلى عوالم مجهولة، و دال يبحث عن مدلولات هاربة، و والتّداعي أيضا عمليّة استدعاء الأفكار والصّور من اللاّشعور الجمعي من وسائل غير عاديّة كالأحلام وغيرها، فتدفع بالمبدع إلى الإنتاج الفنّي والابتكار، فيخلق عوالم خاصّة به، شبيهة بعوالم الأسطورة... وهذا ما يجعل الشاعر متفردا ومتميزا.

ولقد ارتأينا أن نركز على التّداعي المعنوي للكلمة وارتباطه بالصّور الشعرية حيث « تُحِلُّنا مفردة واحدة على جملة من التراكمات الأسطورية والتراثية التي لا تبدو لنا إلا إذا تعمقنا أكثر داخل هذه النصوص، وأمسكنا بالخيوط الذي يقودنا إلى جوهرها»²

توحي لفظة "هابيل" في قصيدة "قافلة الضياع" للسياح بتداعي الصور المأساوية أبطالها: الضياع والخراب، تتوالى الواحدة تلو الأخرى، تعود بنا إلى أسطورة "قابيل" التي تضج بعاني الصراع والتمرد والخيانة:

«أرأيت قافلة الضياع؟ أما رأيت النازحين؟

الحاملين على الكواهل، من مجاعات السنين

آثار كل الخاطئين.

النازفين بلا دماء

السائرين إلى وراء

كي يدفنوا "هابيل" وهو على الصليب ركام طين؟

"قابيل، أين أخوك؟ أين أخوك؟"

جمّعت السّماء

أمادها لتصبح. كوّرت النّجوم إلى نداء:

"قابيل، أين أخوك؟"

يرقد في خيام اللاجئين

السلّ يوهن ساعديه، وجئته أنا بالدواء

والجوع لعنة آدم الأولى وإرث الهالكين «³.

تتوالد الصّور، وتخلق من مأساة اللاجئين، "فقافلة الضياع" حرّكت في نفس الشاعر ألما دفيناً، تجاه النّازحين، من ثم جعلته يتذكر كل خطايا السّابقين، من "آدم" و"حواء" إلى "قابيل" المجرم، وأخاه "هابيل" المصلوب، الذي ينام في خيام اللاجئين، وما هو إلا الفلسطيني الجريح، الذي يعاني المرض والظلم وبطش الطّغاة والسّفاكين، الذي حاول السيّاب أن يضمد له جراحه الدّامية، ويغيثه بالدّواء، ويرفعه من الحضيض إلى العلاء، كلّ هذا بسبب الصهيونيّ الذي استوطن وتوغّل في التّراب الفلسطينيّ وفرض هيمنته، وسرق من الفلسطيني أرضه وصوته وحتّى أنفاسه.

تنبعث الصّور وتتشابك فيما بينها، فالسيّاب يعود بذاكرته إلى الوراء، إلى الإرث الإنسانيّ والمخزون الثّقافي، حتى يربط بين صورة النّازحين الفلسطينيين وقصّة "قابيل"، فيجعلهم يحملون إثمه، ويصبح "هابيل"، يشاركه فجيعته ومأساته، فأحياناً "هابيل" هو السيّاب، وأحياناً هو الفلسطينيّ، وفي كلتا الحالتين كلّ منهما يعاني المرض والحرمان.

ومن تفاصيل ذاكرة السيّاب، وأسطورة "قابيل"، القابعة فيها، وكتلة آلام الفلسطينيين، تتشكّل صورة مكثّفة من الهموم التي تؤرّق الشاعر المحموم، وتشغل فكره، وتزدحم في صدره وتنفس، إلى التجليّ والخروج عبر الكلمات، وتنطلق كانبلاق ماردٍ جبّار. تعلو وتتصاعد وتضطرب، لترسم هول الفاجعة.

تتداعى هذه الصّور، لتعلن عن حالة الفلسطينيّ الأسير، وعن حالة السيّاب، وإحساسه بنفس معاناته وموقفه من العرب المتمثّلين في "قابيل"، وعجزهم تجاه القضية الفلسطينية، و"السيّاب" يسمع صرخة الفلسطيني التي تتأجّج صداها في نفسه وتمزّق روحه المتعبة.

استدعى الشّاعر هذه العناصر الأسطوريّة، فكانت أثّراً ترسّبت في ذاكرته وترسّخت في ذاكرة الإنسانية، ف"قابيل" هو النّمودج الأوّل والبداييّ للقتل والجريمة، وقد أسقط الشّاعر هذه الإشارات والإحالات على الواقع وعلى العصر الرّاهن، وخير أسطورة يمكن استحضارها للتّعبير عن الواقع الفلسطينيّ هي أسطورة "قابيل"، سواء من حيث التعرّض للقتل والظلم، أو الخيانة، وخذلان العرب.

يتذكّر "هابيل الأخير" للشاعر "عبد العزيز المقالح" القدر المشؤوم لـ "هابيل"، لتوحي كلمة "هابيل" بالماضي السّحيق والغابر، فـ "هابيل" هو الضحيّة المغدورة، فتتداعى صورة "قابيل" المجرم بطريقة تلقائية لارتباطهما الأزليّ ببعضهما:

«هابيل ...

كم عام مرّ وأنت قتيل

مطروح في الطرقات

تبحث عن حفّار قبور بين الأموات

قابيل الآثم حين رآك

مقتولا فرّ إلى البحر

ابتلعتة الأسماك

وبقيت بلا قبر -وحدك- يبكي الجسد العريان خجلا

وتمر حواليه الغربان

عل بقايا إنسان

يشهد رحلتها اليومية

كيف تواري في حزن موتها

في رعب قتلها»⁴.

تتداعى العديد من الصّور تباعا، ف "هابيل" الضحيّة يجرّ خلفه صورة القاتل الآثم "قابيل"، وفراره تاركا جثّة أخيه تلفحها الرّيح في العراء، فظلّ "هابيل" من دون قبر تعلّمه الغربان كيف يدفن أخاه في زمن الجثث الملقاة هنا وهناك، فألف وجهه من "قابيل" وألف ضحيّة مثل "هابيل"، فكم من أسراب الغربان تحتاج كي تتعلّم كيف تواري موتها.

لجأ الشّاعر إلى خياله الجّامح، فصّور قابيل فارّا عبر البحر تلتهمه الأسماك، وامتزجت رؤيا الشّاعر تجاه الواقع وصورة هابيل. فالعصر عصر الحروب والضّغائن، عصر يعلو فيه صدى الآهات، ملقاة على الطريق، فالقتلى بلا عدد فكيف يمكن أن تواريها الغربان؟

تتوالد الصور في هذا المقطع لتعبر عن مقصدية الشّاعر، وتربط بين الماضي المتمثل في قابيل و"هابيل" الحاضر المليء بالفجائع والحروب.

ومرّ الشّاعر في سرد الفجيعة لكي يصف هول المأساة، مأساة الإنسانية:

«لكنّ العام يمرّ

والجسد العاري الحرّ

مطروح في الطرقات

تسطو الديدان على عينيه

تثني سواته الريح

تنزو حشرات اللّيل عينيه

وتسير على الوجه الظلمات»⁵.

لا أحد يبالي بجثة "هابيل" الملقاة، منذ أعوام، وهو عارٍ مطروح في الطرقات، تلك المأساة التي يعظمها الشاعر، ليرسم ملامح قسوة وجفاء في البشرية.

يجمع التّداعي بين ذاكرة الشاعر وأسطورة "قابيل" والحاضر، وخيال الشاعر المفعم، والقاسم المشترك بين جميع الصور التي رسمها هو الألم والفجعة. وليس العالم العربي ببعيد عن هذه المناظر التي تعيشها البلدان العربيّة في كل لحظة من الزّمن.

ويستدعي الشاعر "سميح القاسم" صوراً من سفر التكوين في التوراة «وعاشر آدم حواء زوجته فحبلت، وولدت قايين إذ قال (...) رجلاً من عند الربّ"، ثمّ عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعياً للغنم، أمّا قايين فقد عمل في فلاحه الأرض»⁶

أبدى آدم وحواء عصياناً للإله ممّا جعله يطردهما من جنّته، فتتجلى صورة أخرى للخطيئة، تكمن في التمرد والعصيان، والركض خلف المجهل والظنون وفطرة الإنسان، وكذلك الحال بالنسبة لخطيئة "قابيل"، فقد كان سببها المرأة من جديد، كما ترويه الأسطورة، وتتداعى صورة أخرى من إحياءات الخطيئة، تتمثل في صراع الإخوة الأعداء، "قابيل" و"هابيل".

«من يوم شاء الله أن تهوي يدا قايين،

قاتلتين، غائصتين في الدم، في الحياه

ويروح يصرخ من وراء السّدل

في عسف الطغاة... الأغبياء من الطغاه

قايين! يا قايين! أين مضت بهابيل خطاه؟!

اذهب يراففك الشقاء .. جزاء فعلتك الحرام!»⁷

وحين يذكر الشاعر خطيئة قابيل (القاتل)، تظهر صورة تناقضها، هي صورة "هابيل" الضحيّة الذي لم يستطع درء بلاء أخيه والدفاع عن نفسه، فكان ضعيفاً مستكيناً.

تبدو هذه الثنائيّة المتناقضة مثل مشهد سينمائيّ، أبطاله الدّم والظلم والطغيان، وهذه الأفكار المتداعية لا تتجاوز الواقع بحروبه وصراعاته الدّامية، وقد لجأ الشاعر إلى هذه الصور «للتعبير عن قيم إنسانيّة مجردة، إمّا لأسباب سياسية بأن يتخذ الشاعر الأسطورة قناعاً يعبر من خلاله عما يريد من أفكار ومعتقدات تجنباً للمضايقات السياسيّة أو الدينيّة، فتكون شخصيّات الأسطورة ستاراً يخفي الشاعر خلفه ليقول ما يريده، وهو في مأمن من السجن أو النّفي، كما أنّ استعمال الأسطورة يطرح مستويات مختلفة للتأويل»⁸.

فمهما مرّ الزمان، إلا أنّ قيمها لا تندثر، ومواقفها لا تنتهي، وحوادثها ما يلبث أن يكرّرها الزّمن ويعيدها. فالصّور المتداعية في ذهن الشاعر "سميح القاسم" ليست سوى «لحظة تعبير عن النزعة التغريبية التي أحسها وهو في وطنه المسلوب وبين أفراد شعبه المغلوب، فعبر عن هذا الحرمان، وهذه الغربة النفسية بصرخات قلّمة الثائر الرّافض لكلّ أنواع السّلب والقهر والبطش»⁹.

أورقت تداعيات "سميح القاسم" وأفكاره، فنهل من ذاكرة الانسانية والموروث الديني، صورا وإحياءات ودلالات، يمكن إسقاطها على الوطن العربي وما يعيشه من صراعات، لا تنأى على أن تكون صراع الأخوين بين "قابيل" و"هابيل".

فجّرت أسطورة "قابيل" ينابيع التداعيات لدى الشعراء المعاصرين، فلم تختلف الأسطورة في جوهرها عن الواقع الذي أرق هؤلاء الشعراء ودفعهم إلى التماهي والتوحد مع "هابيل" والعودة إلى أحضان الذاكرة والاغتراف منها للتنفيس عن غضبهم والتعبير عن همومهم.

2- الحوار:

أ- الداخلي:

المونولوج أو الحوار الداخلي، حوار مع الذات، ومناجاتها، الذي يضي على النصوص الشعرية جمالية ودينامية ويبث الحياة في عروقتها.

وهو صوت الذات مع نفسها، حيث لا يسمعه أحد سواها «إذ أن عملية استبطان النفس تجعل القصيدة حية في تفجيرها لازمة الشاعر بشكل غني»¹⁰.

يستثمر الشاعر هذه التقنية الجمالية، حتى ينقل تناقضات ذاته، وهواجسها ومشاعرها الحبيسة، ويلقيها في ثنايا القصيدة، فتعكس أنات الشاعر وصرخاته وتجعل من قصيدته تئن وتذرف الدموع؛ ويجعل القارئ يتابعه لفك كنه القصيد، وفك شيفراتها، لأنه «مطالب بأن يرهف السمع للمونولوج الداخلي ويحاول أن ينوحد بصاحبه، أو بعبارة أدق، بالحديث الداخلي لتلك الشخصية»¹¹.

لعلّ السياب يخاطب نفسه، بعدما حزت في نفسه صورة النازحين الذين يجرون خلفهم أثواب الجوع والخيبة وآلام السنين، يحملون على كاهلهم خطايا وآثاما، لم يكن لهم يد فيها، بل حملوا على كاهلهم "هابيل" القاتل:

«أرأيت قافلة الضياع؟ أما رأيت النّازحين؟

الحاملين على الكواهل، من مجاعات السنين

آثام كل الخاطئين

النّازفين بلا دماء

السّائرين إلى الوراء

كي يدفنوا هابيل وهو على الصّليب ركام طين»¹².

لقد حاول الشاعر أن يدين الحكام، الذين حملوا الشعوب ما لا تطيق، وجعلوا أمن الأوطان كومة من رماد، مستثمرا في ذلك أسطورة "قابيل"، جاعلا من شخصية "هابيل" الضحية التي تحمل على الأكتاف، يحملها النّازحون، الموجهون، وهو على الصليب ركام طين يائسا خائبا ومخذولا، إنه "هابيل" الفلسطيني.

ويبدو حوار الشاعر، وكأنّه ينزف ألما ويصرخ وجعا، ما جعل الشاعر يقول ما لا يقال، ويخرج مشاعره العميقة، ليمرّر رسالة كلّها شقاء. إذ لم يستطع الوقوف ساكنا أمام الأوضاع السياسية المضطربة والأحوال

الاجتماعية المزرية، وحالة الفلسطيني الذي أصبح بقايا إنسان، ودمية لا حول لها ولا قوة تحرك خيوطها أصابع اليهود، والخونة من العرب يشيعون الجثث ويدفنونها ويتلون عليها القرآن! تهادت كلمات "السياب" سمفونية ألقاها وجع، تثلّت بها نفسه فأخرجها إلى الملاء، تلك الكلمات التي عدّته ولم تزل، فثار على الأوضاع وانفجر ليمنح تجربته بعدا وعمقا وإحياءا. أمّا الشاعر "عبد العزيز المقالح"، فيبدو صريحا في خطابه الموجه لـ "هابيل" منذ العنوان وبداية القصيدة حتى نهايتها. فما هو يدعو "هابيل" للتهوؤ، للدّفاع عن نفسه، للوقوف في وجه الطغاة، ألا يكون ضحية، ألا يقبل الإهانة، ألا ينتظر من الغربان أن تدفنه :

«فتحسّس خنجرك المسموم

أغمده بلا خوف

أفتح قلب أخيك المحموم

إني أدعوك لكي تبقى أنت القاتل

أنت الضارب وجه الباطل

* * * *

هابيل ...

أقتل ...

أقتل...إياك تقول:

أنا المقتول

أنا المقتول»¹³.

يبدو أن الشاعر لا ينتظر ردّا من "هابيل"، بل يخاطب نفسه ويناجيها، في حوار يتخذ من الرجاء حلة يرتديها، فالشاعر يحلم بـ "هابيل" جديد، "هابيل" لا يرضخ للطغاة ولا يحني لهم رأسه، يتمنى الشاعر في قرارة نفسه أن تكون كل ضحية للظلم آخر "هابيل" تنتهي معه الأحزان والآلام، ليبزغ الصبح من جديد، وتنتهي العبودية التي دامت عصورا، فيصبح الضحية قاتلا يرفع صوته ويشهر سلاحه من أجل استرداد حقه وكرامته وذاته المفقودة التي سلّحها الظالمون، فحينها فقط يكون القتل مباحا. يطمح الشاعر لغد سعيد تستقل فيه الأمم وتبعث من رمادها كالعنقاء، على يد "هابيل" الجديد والثائر والمخلص للبشرية من جشع الإنسان وحقده على أخيه، "هابيل" المشجب الذي يعلق عليه الشاعر كل أحلامه وتطلعاته وآماله.

ب- المحاورّة: (الحوار الخارجي)

يلجأ الشعراء إلى تقنية المحاورّة، لإخراج شحنة من المشاعر والعواطف المكنونة في دواخلهم، من اضطراب، وقلق، وتوتر، وخوف... وقد يمتزج الحوار بتقنيات أخرى كالمونولوج والسرد والوصف... وغيره من التقنيات التي يستعين بها الشاعر ويستند عليها ليزيد من جمالية نصّه. ويصور واقعنا المير والمسمم بديكتاتورية الحكام وطغيانهم، لاجئا إلى الرموز والأساطير «لذلك ظلت الأسطورة موردا سخيا للشعراء في كل عصر، وفي كل بقعة يجسدون عن طريق معطياتها الكثير من أفكارهم ومشاعرهم، مستغلين ما في لغة الأسطورة من طاقات إيجابية خارقة، ومن خيال طليق لا تحدّه حدود»¹⁴

يتخذ الحوار من الأسطورة قناعاً يتوارى خلفه، فليس كل الكلام مباح، في زمن السلطة والرقابة، لذا فالحوار يتماهي مع الأسطورة، ويتحدث بلسانها، ويجعله أكثر عمقا وإيحاء أو ترميزاً. ففي قصيدة درويش "حبر الغراب"، يروق للشاعر أن يتحاور مع "الغراب"، شاهد العيان الوحيد على جريمة "قابيل الشنيعة" فيحاوره الشاعر ويناديه، ويحذّره من "قابيل" الجديد:

«لا ليل يكفيننا لنحلم مرتين. هناك باب
واحد لسمائنا. من أين تأتينا النهاية؟
نحن أحفاد البداية. لانرى
غير البداية، فاتحد بمهب ليلك كاهنا
(...)

الدّم من سلالتنا أمامك، فابتعد
عن دار قابيل الجديدة»¹⁵.

يخاطب "درويش" الغراب، بعد أن عانى من الموت ومشاهد الفزع، بسبب اليهود "أحفاد قابيل" الذين يحترفون القتل ويمارسون الظلم على الفلسطينيين، فيحذر الغراب من قابيل الجديد، قابيل هذا العصر والكابوس الذي يغتال أحلام الفلسطينيين.

يشارك "درويش" معاناته مع الغراب:
«أنا أنت في الكلمات. يجمعنا كتاب
واحد. لي ما عليك من الرماد، ولم
نكن في الظل إلا شاهدين ضحيّتين
قصيدتين
قصيرتين

عن الطبيعة، ريثما ينهي وليمته الخراب»¹⁶.

ينفذ الغراب في النصّ القرآني الكريم مهمّته على أكمل وجه ويعلم "قابيل" المجرم الدفن، لكنّ غراب "درويش" لن يقوم بالمهمّة ذاتها، فـ "هابيل" الفلسطيني لن يدفن ولن يوارى عن الأعين والقضيّة الفلسطينية لن تختفي ولن تموت، مادامت الشمس تبرز على أرض فلسطين المقدّسة، ففي كل يوم جديد يبعث الأمل وتؤجّل النهاية التي يتعجلها اليهود.

عندما استحضر "درويش" تقنيّة الحوار مع الغراب، أراد ربطها بالواقع الفلسطيني، كما حوّر من القصّة الأصليّة وعدّلها لتتماشى مع هذا الواقع وتعلن بأنّ الفلسطيني لن يموت ولن يباد، في نبرة كلها تحدّ وصمود وسيظلّ الفلسطيني واقفاً في وجه رياح اليهودي العاتية، وسيظلّ شامخاً منتصباً حتى آخر نفس.

لقد لعب الحوار دوراً مهماً في قصيدة "درويش"، وكان بمثابة اللسان الناطق والمتحدّي للكيان الإسرائيلي والوشاح الذي ألبسه لقصيدته، ومنبرا بعث من خلاله "درويش" أفكاره النضالية وقراءاته للواقع وتطلّعاته وآماله نحو المستقبل وساعده على تمريرها، متّخذاً من أسطورة "قابيل" وموتيف الغراب سنداً، ومن النصّ القرآني دعماً له وسلاحاً يشهره في وجه الظلم.

أرعى "أحمد مطر" العنان لحواره، وراح يخاطب "قابيل" و"هابيل" معا، دون مقدمات في وضوح النهار، فوجه أصابع الاتهام للأخوين:

«اثنان لا سواكما، والأرض ملك لكما

لو سار كل منكما بخطوه الطويل

لما التقت خطاكما إلا خلال جيل

فكيف ضاقت بكما فكنتما القاتل والقتيل؟

قابيل .. يا قابيل

لو لم يجيء ذكركما في محكم التنزيل

لقلت: مستحيل!

من زرع الفتنة ما بينكما ..

ولم تكن في الأرض إسرائيل؟! «¹⁷.

سفك قابيل عنوة دماء أخيه، حقدا وغلا، وارتدى ثوب العار. فأقرّ الشاعر بأنّ إسرائيل ليست المتهمة والمعنّية، فوحده "قابيل" المذنب والمدان فكأنّه يتساءل عمن أشعل فتيل الفتنة بينهما و إسرائيل لم تكن موجودة في ذلك العصر، فنار الفتنة موجودة قبل وجود إسرائيل، فلما تكون المشجب الذي نعلّق عليه كل خطايانا وكلّ أحقادنا؟ حين نجعل بأسنا بيننا وبأيدينا نصنع مصيرنا، وعندما تنقشع الغيوم، ويزاح كل زيف، يظهر وجه الحقيقة، ففي كلّ مكان، ظالم ومظلوم، أخ يقاتل أخاه، في كل وجه من الوجوه يتجلّى "قابيل" والعرب يتقاتلون تحت اسم العروبة، ويسفكون الدماء رافعين راية الإسلام، يتنازعون ويختلفون، فهم مشغولون بتقبيل الأعداء، والركوع والانحناء أمامهم، وتقديم رقاب إخوتهم قرايين لهم، فأين هي إسرائيل من كل هذا؟! كل هذا؟! كل هذا؟!

أما "سميح القاسم"، فقد اختار أن يحاور القطعان التي ضاعت وحادت عن الطريق:

«دوري مع الإعصار! يا قطعان! ضيّعك الرعاة!

وابكي ربّيعا مات .. مات! «¹⁸.

حين اغتيل الرّاعي هابيل، فقد قطعانه الاتجاه، وتاهت، تسير من غير هدى دون تخطيط، تعاني فقرا وحرمانا. وما يلبث الشاعر أن يوجّه خطابه نحو "قايين":

«قايين! قايين! أين مضت بهابيل خطاه؟!

اذهب! يرافقتك الشّقاء .. جزاء فعلتك الحرام! «¹⁹.

في كل بلاد عربيّة، يوجد "قابيل" جلاّد، يستبيح دماء الضّعفاء، "قابيل" في كل زمان ومكان، يحيل الحضارة يبابا، ينهب خيراتها، ويقطف أحلام أبنائها، ويقتات بأنّات الأبرياء، يزرع الشّوك في دروبها. "قابيل" الحاكم الذي أباد الأمان، ونشر الدّعر بين القطيع وتركه هائما وأصبح غريبا في وطنه.

كانت تقنية "الحوار" البوصلة التي وجّهت الخطاب الشعري، والعصا التي توكّأ عليها الشعراء، ليبلغوا مواقفهم ورؤاهم تجاه العصر، وشكواهم ورفضهم لنظام الحكم والحكام، متقمّصين شخصيّة "هابيل"، أو

مخاطبين غضبا وكمدا "قابيل"، فامتزجت عواطفهم ومواقفهم إزاء الواقع، فشكّلت بانورا من الأشجان والهموم.

3- اللغة الشعرية:

يتوسّل الشعر من اللغة مادّة الخا، وكلّ شاعر له الخيار في تأنيث نصّه والنهل من اللغة ما يشاء، لذا فلا بدّ له من ابتكار معجم خاص، واللعب بالكلمات وتشكيلها بطريقة خاصّة ومميّزة، تمهّدي بين حضور وغياب، تغري القارئ وتوقعه في شبّاكها، فيملأ الشاعر نصّه ألغاما موقوتة يمكن أن تتفجّر كلّما توغّل القارئ في أعماقه، من خلال اختراق نظام اللغة المألوف، والانزياح عنها، وهدمها وإعادة ترتيبها من جديد.

واللغة الشعرية لغة مميّزة و فخمة، تعبّر عن تجربة إنسانية، تزدهم بالمشاعر والعواطف، تترجمها هذه اللغة «فالكلام تجلّ لتلك التجربة، ولعواطف الشاعر، وأحاسيسه في تلك التجربة، فالشاعر يعي العالم جماليا، ويعبّر عن هذا الوعي تعبيرا جماليا. ومن هنا كان الشعر بنية لغوية معرفيّة جماليّة، وتحليل بنية اللغة الشعرية يسمح بالكشف عن حيازة الشاعر الجمالية للعالم أي يسمح بالربط بين اللغة والرؤيا...»²⁰.

اللغة الشعرية تعبّر جميل عن رؤية الشاعر للعالم، فهي وعاء يحمل أفكاره وأحلامه وتعبّر عن مخاوفه وهو واجسه، فهي صدر رحب يتسع لكل آلامه فتسمح له بخلق عوالم جديدة والتحليق نحو آفاق بعيدة.

تتولّد اللغة الشعرية من تمزيق حصار اللغة، وعنقوان التمرّد والثورة عليها، في لحظة مختلة، لإحداث هوة ورجّة جماليّة. ولعلّ طبيعة كل عصر، تندخل في تطور اللغة، أي اللغة والشعر والأدب، فباتت اللغة تميل إلى الغموض والألغاز وضبابية اللفظ واللجوء أيضا إلى اللغة البسيطة، والتناس مع نصوص أخرى، وتوظيف كلمات مهجورة وغريبة أو عامية و التي تقوم بتشكيلها بطريقة خاصة ومن بين أشكال اللغة الشعرية:

أ- الاستفهام:

الاستفهام والنداء من الأساليب البلاغية التي يفتتح بها الشعراء قصائدهم أو نجدها مترامية هنا وهناك في ثناياها، إلا أنّها قد تنزاح عن أغراضها الحقيقية من إلتماس إجابة أو لفت انتباه، و الانحراف عنها، ملبية أغراضا أخرى ينشدّها الشاعر، أو باحثة عن دلالات أخرى يدسها الشاعر دسا في قصيدته كالسخرية والتهكم، أو الانكار... لكن ليس طلبا للجواب.

فالسباب يتساءل، ويبحث عن الجواب:

«أرأيت قافلة الضياع؟ أما رأيت النازحين؟»²¹.

وفي البيت الذي يليه يسترسل في السؤال:

«الحاملين عن الكواهل، من مجاعات السنين

آثام كل الخاطئين»²².

اختار "السياب" طرح السؤال بهمزة الاستفهام، التي لن يريد بها جوابا، بل أرادها لمعانٍ أعمق غير معنى الاستفهام، ليجسد معاناة شعورية إزاء النازحين واللاجئين الذين جعلهم في الصدارة، ليعبر عن هول المأساة، ويرسم صورتهم المخيفة والمحنة وكلّه حسرة وألم. وفضلا عن ذلك، فالشاعر لا يتوجه بخطابه الاستفهامي إلى

شخص معين، بل إلى كل إنسان، في داخله بذرة الإنسانية والتعاطف مع هؤلاء النازحين الفلسطينيين الحاملين على كاهلهم الوطن الموءود لسنين.

ثم ينهي الشاعر سؤاله، بعد وصف حال اللاجئين من جوع السنين وحملهم للآثام والخطايا:
«كي يدفنوا "هابيل" وهو على الصليب ركام طين؟»²³.

كأنّ الشاعر أمهل نفسه فسحة من الزمن، يروي فيها الفاجعة، وهو بين حيرة ودهشة وخيبة وألم، فيستدرك نفسه ويؤتمّ سؤاله، فمن أجل "هابيل" طرح السؤال، من أجل "هابيل" الفلسطيني المهزوم، من أجل الوطن المصلوب.

وما يلبث "السياب" أن يتم السؤال:

«"قابيل، أين أخوك؟ أين أخوك؟"»²⁴.

يخاطب قابيل سائلا عن أخيه هابيل، وهو في قرارة نفسه يعلم الجواب:
«يرقد في خيام اللاجئين»²⁵.

مجموعة من الأسئلة تبادرت إلى ذهن "السياب"، على شكل حوار، أقامه مع "قابيل"، وهو من يجيب، لأنّ "هابيل" يرقد في خيام اللاجئين.

تطلّ المعاني التي طرحها "السياب"، من بين وجع الكلمات، ليخبر عن اللاجئين تفجّعا، وعن الفلسطيني الشقي، الصارخ أنينا.

أزّقت هذه الأسئلة "السياب"، همّا وسُهادًا، لا لأجل الحصول على الجواب، بل لرصد معاناة الإنسان. وقد امتزجت أسئلة "السياب" بالنداء، فالشاعر يستغيث على لسان المحرومين، ولعله يجد المجيب.

أمّا الشاعر "عبد العزيز المقالح" فيكلّم "هابيل" القتل في هذا المقطع ويناديه:
«هابيل ...

كم عام مرّ وأنت قتيل

مطروح في الطرقات

تبحث عن حقّار قبور بين الأموات»²⁶.

تصدّر سؤال "المقالح" قصيدته، مناديا "هابيل" مخاطبا، ليستنهضه من بين الأموات، وبيعه من جديد، لينهض هابيله ويثور، هو نداء لكل ضعيف، لكل إنسان مغدور، لكل وطن مستعمر كي ينهض من جديد، ويقاوم كل ظالم، وكل الطغاة وكل "قابيل".

ويتوجه "سميح القاسم" هو الآخر، يتوجه بسؤاله إلى "قابيل":

«قايين! يا قايين! أين مضت هابيل خطاه؟!»²⁷.

حين هوت يدا "قابيل" قاتلتين، غائصتين في الدماء، لم يكن هناك من سبيل للتراجع أو الندم، فالجريمة حدثت ولا مفر، ليقحم "سميح القاسم" نفسه ويسأل "قابيل" عن أخيه "هابيل"، وهو استفهام غير حقيقي؛ فـ "هابيل" قُتل والسلام، لذا فسؤاله سؤال إنكاري، يريد به اللوم والعتاب لقاتل أخيه.

ولا يختلف "أحمد مطر" في "الفتنة اللقيطة" عن غيره من الشعراء الذين خاطبوا "قابيل" أو "هابيل"،

غير أنّ "مطر" يخاطبهما معا:

«فكيف ضاقت بكما فكنتما القاتل والقتيل؟»²⁸.

يبدو الشاعر متنكراً للجريمة، وأسبابها البالية، يتّضح ذلك من خلال السؤال الذي يطرحه عن كيفية وقوع الجريمة، رغم أنّ الأسطورة تروي أحداثها، والكتب السماوية كذلك. والكثير من الأساطير وقصص الحضارات تدور حول صراع الأخوين، إلّا أنّ الشاعر "أحمد مطر" يشكّك في هذه الجريمة، ويحتار، ليس تشكيكا في القصة، بل ليمرّ خطابه الساخر للحكام العرب الذين يتقاتلون وهم الإخوة، ويلقون اللوم على إسرائيل.

وفي قصيدة "من أوراق هابيل" تتوالى سلسلة من التساؤلات المهمومة، المليئة بالمرارة والألم، يوجهها الشاعر "ناصر شبانة" إلى "قابيل":

«لماذا إذا حط سرب الحمام قربي

تمد يدا من نحاس لزهرة قلبي

(...)»²⁹.

فأحيانا يسأل الشاعر أخاه، لماذا اغتاله، وأحيانا أخرى عن الذنب الذي ارتكبه اتجاهه؛ فيقول:

«وما هو ذنبي»³⁰.

ويستمر في السؤال:

«وماذا يقول الحمام»³¹.

ويكمل الشاعر طرح أسئلته متوجهاً بها إلى أخيه:

«وماذا إذا زلزل القبر زلزاله

ثم أخرج أثقاله

ثم قامت عظام القتيل

تحدث أخباره في العراء»³².

يسأل الشاعر أخاه، إذا قام وبعث من جديد، وصار رماده لحماً وعظاماً، واستحال إنساناً، وواجه أخاه، ونظر في عينيه، ليرى ردّ فعله، ليحسسه بتأنيب الضمير، والإثم الذي جناه، والذنب الذي وقع فيه:

«وكيف تواجه قلبك حين يسائل عينيك

عن فارس ضاع من بين كفّيك»³³.

يحيك الشاعر أسئلة كثيرة، كلها خيبة، مواجهها بها "قابيل"، يربط بينهما بخيط من حروف العطف، غرضه منها رصد أحداث الجريمة، على شكل تساؤلات، فحواها لوم وعتاب ولوم للأخ الذي اغتال أخاه وكلّهُ ضغينة وجفاء و أسئلة عديدة يطرحها الشاعر، يمرر من خلالها معاناته، وفاجعته الأليمة، يحملها أناته السقيمة، لعل الأخ القاتل يستفيق فيه الضمير.

ب- النداء:

يلجأ الشعراء المعاصرون في قصائدهم إلى أسلوب النداء، فإما يفتتحون به قصائدهم أو يوشحونها به، بغية التعبير عن أوضاع سياسية، أو نقل تجربتهم الشعورية أو تعبير عن مشاعر النفس المكنونة. وفي القصائد

السابقة قد اعتمد الشعراء على أسلوب النداء، إما منادين "هابيل" أو "قابيل" أو كلاهما، أما الشاعر محمود درويش فقد نادى الغراب، وقد امتزج هذا الأسلوب مع الاستفهام.

وقد عبر الشعراء، من خلال النداء، عن تفجعهم، وألمهم العظيم، المتضخم، وشكواهم من الواقع المرير، وخيبتهم من الأنظمة والحكام.

وفي هذا الأسلوب، بعثوا هؤلاء، "قابيل" و"هابيل" والغراب وجسدوهم، وجعلوا منهم كيانا ولسانا، يخاطبونه، كرمز أرادوا به التقنع والاختفاء، "فقابيل" تجسيد للظلم والطغيان، في حين كان هابيل الضحية المغدورة، والأوطان الذبيحة... لعل "قابيل" يتوب، أو "هابيل" يثور، وتتغير أحوال الأوطان العربية.

الخاتمة:

تعدّ هذه الورقة البحثية رحلة عبر التاريخ، تزح لنا الستار عن أقدم الأساطير التي عرفها الإنسان، و التي تروي صراع الإخوة الأعداء، أسطورة "قابيل" التي غادرت ثنايا النصوص الدينية لتقف أمام عتبة القصائد الشعرية وتتأطر وتبعث من جديد، حيث أسفر بنا هذا الحفر والتنقيب والاهتمام بأسطورة "قابيل" عن الشعراء المعاصرين الذين شغفتهم هذه الأسطورة و استحضروها، وحملوها دلالات انسانية واجتماعية، ونسجوا من خيوطها لوحة تراجيدية تصرخ ألما وحزنا وخيبة كواقعنا العربي المتشظي والبائس.

1- حافظ العديد من الشعراء على صورة "قابيل" النمطية، المتمثلة في القاتل والجاني، أما "هابيل" فكان الضحية المغدورة، فأدين "قابيل" ونال "هابيل" العطف والرحمة.

2- أسطورة "قابيل" لم تمثل صراع الأخوة الأعداء فحسب، بل مثلت عداوة العربي لأخيه.

3- جعل السيّاب الفلسطيني اللاجئ امتداد لـ "هابيل"، و اسرائيل وجه آخر لـ "قابيل".

4- جسّد "سميح القاسم" هابيل في صورة الحاكم العربي، الذي تاه و ضاع شعبه من بعده.

5- فأراد "المقالح" لـ "هابيل" أن يخلع ثوب الضحية، ويغيّر مصيره، وهي دعوة لكلّ شعب عربي لأن يصبح حراً وينفض عن نفسه غبار الظلم والاستبداد.

6- أحاطت أسطورة "قابيل" في قصيدة درويش هالة من الضبابية والغموض. عليها موتيف "الغراب"، الذي تماهى مع الضحية "هابيل".

7- ألقى أحمد مطر على كاهل "قابيل" و"هابيل" مأساة العرب ومعاناتهم، فكسر نمطية الأسطورة المعهودة وبرأ اسرائيل من خيبات العرب.

لقد عبرت أسطورة "قابيل" عن واقع العرب الذي ينضح ألما وحروبا وصراعات، وكانت أكثر عمقا في تصوير الهم العربي المشترك وجسدت دلالات انسانية وايحاءات سياسية وخلقوا أصواتا متعدّدة، وجماليات متنوعة.

هوامش وإحالات المقال

¹: عبد الرضا علي: الأسطورة في شعر السيّاب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، 1978، ص 93-94.

²: إلياس خوري: دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشد، بيروت، ط2، 1981، ص40.

³: بدر شاكر السيّاب: الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، 1971، ص 368-369.

⁴: عبد العزيز المقالح: ديوان عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ص 237-238.

- ⁵: المصدر نفسه، ص 238-239.
- ⁶: الكتاب المقدس - كتاب الحياة -: سفر التكوين 3-4، الطبعة السادسة، 1995.
- ⁷: سميح القاسم، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، 1973، ص 311.
- ⁸: رمضان الصباح: في نقد الشعر العربي المعاصر (دراسة جمالية)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط 1، مصر، 2002، ص 344.
- ⁹: المرجع نفسه، ص 4.
- ¹⁰: عبد الرضا علي: مرجع سابق، ص 98.
- ¹¹: نعيم عطية: المونولوج الداخلي في الرواية الحديثة، مجلة الفيصل، عدد: 86، ماي 1984، ص 47.
- ¹²: بدر شاكر السياب: مصدر سابق، ص 368.
- ¹³: عبد العزيز المقالح: مصدر سابق، ص 239-240.
- ¹⁴: علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، 1997، القاهرة، ص 174.
- ¹⁵: محمود درويش: مصدر سابق، ص 321.
- ¹⁶: المصدر نفسه، ص 322.
- ¹⁷: أحمد مطر: لافتات 6، منشورات أحمد مطر، لندن، 1996، ط 1، ص 15.
- ¹⁸: سميح القاسم: مصدر سابق، ص 312.
- ¹⁹: سميح القاسم: المصدر نفسه، ص 312.
- ²⁰: محمد عبده فلفل: في التشكيل اللغوي للشعر - مقاربات في النظرية والتطبيق -، منشورات الهيئة السورية للكتاب، دمشق، 2013، ص 13.
- ²¹: بدر شاكر السياب: ص 368.
- ²²: بدر شاكر السياب، المصدر نفسه، ص 368.
- ²³: بدر شاكر السياب: المصدر نفسه، ص 368.
- ²⁴: بدر شاكر السياب: المصدر نفسه، ص 368.
- ²⁵: بدر شاكر السياب: المصدر نفسه، ص 368.
- ²⁶: عبد العزيز المقالح: مصدر سابق، ص 237.
- ²⁷: سميح القاسم: مصدر سابق، ص 312.
- ²⁸: أحمد مطر: مصدر سابق ص 15.
- ²⁹: عبد العزيز البابطين: مرجع سابق، ص 36.
- ³⁰: عبد العزيز البابطين: المرجع نفسه، ص 36.
- ³¹: عبد العزيز البابطين: المرجع نفسه، ص 36.
- ³²: عبد العزيز البابطين: المرجع نفسه، ص 36.
- ³³: عبد العزيز البابطين: المرجع نفسه، ص 36.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

- 1- الكتاب المقدس - كتاب الحياة -: سفر التكوين 3-4، الطبعة السادسة، 1995.
- 2- أحمد مطر: لافتات 6، منشورات أحمد مطر، لندن، ط 1، 1996.
- 3- بدر شاكر السياب: الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، 1971.
- 4- سميح القاسم: الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، 1973.
- 5- عبد العزيز البابطين: معجم الشعراء العرب المعاصرين، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود للإبداع الشعري، ط: 1، المجلد الخامس، 1995.
- 6- عبد العزيز المقالح: الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، ط 2، 1980.
- 7- محمود درويش: الأعمال الجديدة، منشورات رياض الريس، دط، 2004.

ب- المراجع:

- 8- م عطية : المونولوج الداخلي في الرواية الحديثة، مجلة الفيصل، عدد:86، ماي 1984، ص 47.
- 9- إلياس خوري: دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشد، بيروت، ط2، 1981
- 10- رمضان الصباغ: في نقد الشعر المعاصر (دراسة جمالية)، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر،
- 11- عبد الرضا علي: الأسطورة في شعر السياب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، 1978.
- 12- علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
- 13- محمد عبدو فلفل: في التشكيل اللغوي للشعر-مقاربات في النظرية والتطبيق، منشورات الهيئة السورية للكتاب، دمشق، 2013.